# مراجعة الكتب

# عرض وتحليل لكتاب
# «جمهوريّة اشتراكيّة مسيحيّـة: اليسوعيّـون وهنود البراكواي (١٦٠٩ ـ ١٧٦٨)»

الدكتور جورج جبّور

(١)

الكتاب بقلم ألبرتو أرماني، نقله إلى العربيّة د. كميل إسكندر حشّيمه، بيروت، دار المشرق، ١٩٩٠، ٢٢٢ صفحة من القطع الكبير.

يتألّف هذا الكتاب من مدخل (٥ ـ ٧) بقلم المترجم، ومقدّمة بقلم المؤلّف (٩ ـ ١٤) وأربعة فصول، أوّلها بعنوان: «فتح أمريكا وأبعاده الدينيّة والسياسيّة والشرعيّة» (١٥ ـ ٤٨) وثانيها بعنوان «اليسوعيّون يفتحون البراكواي (٤٩ ـ ٨٢) وثالثها بعنوان «دولة اليسوعيّين بين الكواراني» (٨٣ ـ ١٥٠) ورابعها بعنوان «الذروة والزوال» (١٥١ ـ ١٨٧) كما أنّ للكتاب خاتمة (١٨٩ ـ ١٩٤) وثلاثة ملاحق هي فهرس للحواضر، وآخر للأعلام، وثالث لمصادر البحث (١٩٥ ـ ٢١٩). والكتاب يفصح عن دقّة وأناقة في الإخراج عناوينُها انعدام أو شبه انعدام الأخطاء المطبعيّة، وتشكيل الكلمات التي يحسن تشكيلها اتقاء للبس وتسهيلاً للقراءة، وعناية فائقة بالتنقيط والفواصل لعلي لم أشاهد نظيرًا لها في أي كتاب عربيّ غير دينيّ، واعتماد لأسلوب ترقيم فقرات النصّ، ولا أدري إن كان هذا الترقيم من جميل صنع المؤلّف أو المترجم. والكتاب في هذه الدقّة والأناقة يصحّ أن يكون أنموذجًا يحتذى للكتب العربيّة، وإن كان يستحسن في نظري أن يُصَدَّرَ جدولُ محتوياتِ الكتاب لا أن يؤخّر. وأراني في هذا أميل إلى الأسلوب الأمريكيّ في إخراج الكتب عن

الأسلوب الفرنسيّ ـ والعربيّ الآخذ عن الفرنسيّ ـ. ثمّ إنّ الترجمة تبدو أمينة يدلّك على هذا تأنّ في صياغة الجملة حتّى لكأنّ المترجم (الذي أحبّ أن يسمّي نفسه: الناقل) حاول كلّ الصياغات الممكنة للجملة العربيّة فانتقى أحسنها. فإذا قلت: تبدو الترجمة أمينة مع ما في (تبدو) من انتقاص في الجزم فما ذلك إلاّ لأنّني لا أعرف الإيطاليّة أي لم أقابل بين الأصل والترجمة. ثمّ إنّ الناقل يطلّ علينا بشخصه وبعلمه الخاصّ في عدد من المواضع مضيئًا النصّ في الهوامش إضاءات ذات فائدة كبرى.

(٢)

في مدخل الكتاب يُعرّفنا الناقل بأهمّيّة تجربة ما دُعي بدولة اليسوعيّين في أمريكا اللاتينيّة بين عامَي ١٦٠٩ و١٧٦٨، وبأهمّيّة الكتاب وبخطّته في الترجمة. عن أهمّيّة الكتاب يذكر الناقل أنّ «مسألة حقوق الإنسان وحقوق الجماعات المستضعفة هي شغل المسؤولين الشاغل في عالمنا المعاصر». وهذه نقطة حقّ، والكتاب يُوجّه الاهتمام إليها. أمّا ما لم يخبرنا إيّاه الناقل في المدخل فهو تاريخ صدور كتاب أرماني (ولم أعثر على هذا التاريخ في أي مكان من الكتاب) وظروف التأليف. هل أرماني هذا متخصّص في مسائل هنود أمريكا؟ هل هو متخصّص في مسائل حقوق الإنسان؟ هل عمل لنفسه أم لحساب مؤسّسة، وفي الحال الثانية ما هي هذه المؤسّسة؟

أمّا مقدّمة المؤلّف فدراسة جادّة في المؤلّفات عن الدولة اليسوعيّة التي ظفرت بتقدير فولتير ومونتسكيو، رغم نفور هذين المفكّرين من المؤسّسة الكنسيّة. وفي ختام التقييم العلميّ الدقيق الذي يقوم به أرماني للمؤلّفات التي اهتمّت بتجربة اليسوعيّين في البراكواي يحتفظ بهذا الوصف لهدف كتابه: إنّه محاولة إعادة «كتابة تاريخ الدولة الهنديّة الأصيلة، بصرف النظر عن كلّ خرافة وكلّ تنميق وكلّ خلفيّة إيديولوجيّة» (ص ١٤).

(٣)

في الفصل الأوّل بعنوان «فتح أمريكا وأبعاده الدينيّة والسياسيّة والشرعيّة» شرح للخلفيّة الدينيّة التي كانت في عداد أسباب، أو ذرائع،

الفتح ـ كما أنّ في هذا الفصل عرضًا لما ساد آنذاك من حقّ البابا ـ كنائب المسيح ـ في تملّك العالم الجديد، ومن ثمّ في توزيعه بين الملوك (وهما ملكا إسبانيا والبرتغال). أمّا مشكلة التعامل بين المستوطنين وبين السكّان الأصليّين فقد عالجها المؤلّف مبيّنًا بشكل خاصّ التوجّه الكنسيّ المستمرّ المعلن بشأن ضرورة تمسّك المستوطنين بالمعايير الأخلاقيّة العليا في تعاملهم مع السكّان الأصليّين. وبالطبع لم يكن المستوطنون يميلون إلى الأخذ بأيّ توجّه يحدّ من حرّيّتهم في الاستغلال. ولعلّ من أمتع الصفحات في هذا الفصل وأقساها هي الصفحات (٢٠ ـ ٢٣) التي خصّصت لتبيان «الجدل العقائديّ في طبيعة السكّان الأصليّين». هل هم بشر أم لا؟ ويبدو أنّ هذا الجدل استمرّ لمدّة قرن ونصف تقريبًا بعد اكتشاف أمريكا أي حتّى عام ١٦٣٨. هل نقول، عابرين، إنّ هذا الجدل ما زال له صداه حتّى الآن في معظم الخلفيّات الفكريّة لما عرف باسم مسألة التنمية في العالم الثالث؟ ثمّ يبحث المؤلّف في التبريرات التي أعطتها الكنيسة للفتح بدءًا من قوانين بوركس عام ١٥١٢. وممّا يلفت النظر أنّ الإيضاح الذي صدر عام ١٥١٣ ملحقًا بقوانين بوركس اعتمد، في تبرير الفتح على «سابقة» هي «فتح أرض الميعاد على يد شعب إسرائيل بقيادة يشوع بن نون، وقد تضمّن هذا الفتح، بعض الأحيان، كما جرى لدى احتلال أريحا، إعدام السكّان وفي أحيان أخرى، كما حدث في جبعون، إخضاع الأهلين للعبوديّة» (ص ٢٦). ويذكر المؤلّف، في معرض مقارنته بين استعمار الأنجلو ساكسون لأمريكا الشماليّة واستعمار الإسبان لأمريكا الجنوبيّة، بأنّ السكّان الأصليّين في الحالة الأولى كانوا يطردون، أمّا في الحالة الثانية فكانوا يُستبقون ليُجبَروا على العمل لصالح المستوطنين (ص ٢٧). وفي الحالين كان الناتج تدميرًا للمجتمعات الهنديّة.

إلاّ أنّ تدمير الهنود لم يكن لينسجم مع التعاليم المسيحيّة «وكانت المملكة الأسبانيّة دائمة التذبذب في سعيها إلى التوفيق المستحيل بين التعاليم المسيحيّة ومتطلّبات المستعمرين العمليّة» (٢٨). وفي تلك الفترة يسترعي انتباهنا اسم الكاهن برتلميه لاس كاساس الذي نشر عام ١٥٤٢ وثائق قدّمها للملك كارلوس الثاني، ملك إسبانيا، بعنوان «رواية موجزة عن خراب بلاد الهنود». وعرف هذا الكاهن فيما بعد باسم «رسول الهنود». ونتيجة الأثر المعنويّ لهذه

الرواية وغيرها قرّر الملك عام /١٥٥٠/ عقد مناظـرة عرفت بـاسم مناظـرة ڤلیادولید يمهد إليها «البتّ نهائيًا في شرعيّة فتح أمريكا العسكريّ وكيفيّة معاملة سكّانها (٣٠)». ورغم أنّ المناظرة لم تكن حاسمة، فقد كان من نتائجها التأكيد على الطابع السلميّ الذي ينبغي أن يتّسم به الفتح «والإيضاح الذي صدر عام ١٥١٣، وإن لم يُنْسَخْ، فقد خفّف من صرامته، وحذف من نصّه، الاستناد إلى احتلال شعب إسرائيل أرض الميعاد بالسيف والنار (٣٨)». وحين وصلت إلى هذا المكان في القراءة لم أملك إلاّ تذكر فلسطين، فبعد ما يقرب من خمسة قرون على مناظرة ڤلیادولید ما يزال الفلسطينيّون يُقْتلون ويُستعبدون. وخطر لي أنّه سيكون من المفيد جدًا أن يكون لدينا بالعربيّة وبغيرها كتاب برأسه عن لاس كاسس، رسول الهنود وعن مناظره ڤلیادولید. ثمّ في قسم أخير من هذا الفصل عنوانه «نضال المرسلين في سبيل الهنود» يشرح المؤلّف أثر نظام المحصول (السخرة) في استغلال الهنود استغلالاً ترتّب عليه تيقظ الملك والكنيسة إلى ضرورة الاستعانة بالرهبان، وتنصيبهم رسميًّا محامين للهنود بصفة إداريّين. «وهكذا تأسّست في مناطق مختلفة من أمريكا بعض الحواضر حين كان الرهبان في آن واحد مبشّرين وإداريّين مدنيّين، أو أقلّه معاونين للحاكم المدنيّ يساهمون في نفخ إدارته بالروح الإنسانيّة (٤٢)». ثمّ يعدّد المؤلّف الحواضر التي أنشأها اليسوعيّون في الأنحاء المختلفة التابعة للمملكة الإسبانيّة في أمريكا اللاتينيّة خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر مستعرضًا ملامح تجربة تُوِّجَتْ في البركواي.

(٤)

يبتدئ الفصل الثاني وعنوانه «اليسوعيّون يفتحون البركواي» بتمهيد ومقدّمات تشرح تغيّر الشروط السياسيّة للعلاقة بين اليسوعيّين والشعب الكواراني في إطار الهيمنة الإسبانيّة، حتّى استقرّ الأمر أخيرًا بصدور قرار ملكيّ في ١٦٠٩/٤/٤ يحصر إدارة منطقة إقامة الشعب الكواراني باليسوعيّين. وتتابعت بعد هذا القرار الملكيّ الصكوك التنفيذيّة المنفّذة له. ثمّ يدرس المؤلّف الحواضر المتديّة الأولى ويدرس مرحلة التوسّع التي شهدتها «الدولة» اليسوعيّة ليبيّن في ما بعد وضعيّة الحواضر في منتصف القرن السابع عشر. وهذا الفصل في

معظمه وصفيّ تاريخيّ، والصورة التي يخرج بها القارئ هي صورة إدارة يسوعيّة قويّة الشكيمة بمواجهة المستعمرين الإسبان الذين يودّون استغلال الهنود، وواسعة الرحمة والإنسانيّة بمواجهة الهنود الكواراني الذين يُعَمِّرون الحواضر ويتقدّمون على طريق الحياة الأوروبيّة المسيحيّة.

(٥)

الفصل الثالث وهو بعنوان «دولة اليسوعيّين بين الكواراني» تبيان لقمة التجربة. في قسمه الأوّل الخاصّ بمواقع الحواضر ونظام بنائها تقرأ أنّ عدد سكّان الحواضر لم يتجاوز قطّ مائة وخمسين ألفًا (٨٤)، وأنّ الحواضر أخذت في النصف الثاني من القرن السابع عشر تبدو إلى المدن أقرب (٨٦). أمّا نظام الدولة ـ وهو القسم الثاني من الفصل الثالث ـ فقد توازنت فيه الإدارة المدنيّة مع التنظيم العسكريّ. وإذا كان التنظيم الكواراني الأهليّ قائمًا على أساس القبيلة ومُقدّميها، فمع زوال المقدّمين القدامى ابتدأ ترسّخ وضع المرسلين اليسوعيّين كمرجع اجتماعيّ وإداريّ. ويوضح المؤلّف أنّ دور اليسوعيّين خضع لتقييم متناقض فثمّة مَن نفى تمتّع اليسوعيّين بالسلطة (وأصحاب هذا الرأي اليسوعيّون أنفسهم الذين يودّون نفي القول بأنّهم متعطّشون للسلطة) وثمّة من أكّد أنّ اليسوعيّين كانوا كلّ السلطة (٩٥). ومن اللافت للنظر هنا أنّ المؤلّف يشرح نقطة خطيرة في التفاعل الثقافيّ: لقد ورث اليسوعيّون في الذاكرة الكوارانيّة الشعبيّة دور السحرة أو الآلهة التي توحي للمُقدّمين (٩٦ ـ الهامش ٣٤). هل أقلقت هذه الظاهرة ضمير اليسوعيّين المسيحيّ؟ لا يشير المؤلّف إلى هذه النقطة التي أراها جديرة بأن يشار إليها.

أمّا التنظيم العسكريّ للدولة فقد شمل ما يقرب من ثلث السكّان (٩٩). واستطاع الشعب الكواراني أن يتدخّل عسكريًّا إلى جانب الإسبان حوالى ستّين مرّة بمناهضة شعوب هنديّة أخرى أو بمناهضة جماعات المولّدين والمستعمرين.

إلاّ أنّ الصفحات التي يخصّصها المؤلّف لوصف اقتصاد الحواضر (١٠٢ ـ ١٥٠) هي التي توقّفت عندها طويلاً، إذ هي تفصح حقًّا عن معالم جمهوريّة

اشتراكيّة مسيحيّة رائعة. الزراعة كانت خاصّة وجماعيّة. وبالطبع فالنمط الخاصّ من الملكيّة الزراعيّة كان نمطًا مستحدثًا أقرّ به اليسوعيّون لتنمية النزعة الفرديّة بمواجهة النزعة القبليّة. إلاّ أنّ الكفّة ظلّت راجحة لصالح نظام الاستعمال الجماعيّ للأرض (١٠٨). أمّا الملكيّة الخاصّة للأراضي فلم تكن خاضعة للبيع إذ لم توجد في الدولة اليسوعيّة نقود (١١٢). كما لم توجد قواعد إرث «ممّا لم يدع أيّ مجال لتجميع الرساميل بين أيدي الأفراد (١١٣)».

وحديث الصناعة والحرف آسر. فقد أنشئت في الحواضر معامل لصهر المعادن ومعالجة الأخشاب، كما تطوّرت الطباعة وقامت صناعة نسيج وأنشئت ورشات لبناء الزوارق، و«سرت إشاعات في تلك الأيّام مفادها أنّ لليسوعيّين في البركواي معامل لصنع الأسلحة والذخيرة بكمّيّات كبيرة بغية التحضير لثورة على الإسبانيّين وإقامة دولة مستقلّة. إنّ تلك الأخبار مجحفة بحقّ هؤلاء الرهبان... كما أنّ إنتاج الأسلحة في الحواضر كان محدودًا» (١١٦).

أمّا التجارة الخارجيّة فكانت بيد اليسوعيّين. وفي هذا المجال تعرّض اليسوعيّون لاتّهامات يبيّن المؤلّف أنّها ظالمة إذ صوّرت الرهبان على أنّهم بلغوا درجة عالية من البحبوحة (١٢٠ - ١٢١).

وفي الحياة الاجتماعيّة للكواراني كان ثمّة اتّجاه يسوعيّ للحدّ من تعدّد الزوجات، وكانت ثمّة عناية بتنشئة الأطفال تنشئة دينيّة، وبتشجيع الموسيقى والفنون. كذلك بذلت عناية خاصّة بالصحّة، وبالحياة الاجتماعيّة وبالمناسبات الدينيّة. أمّا علاقات «الحواضر» الخارجيّة مع سواها فكانت معدومة. لقد اختار اليسوعيّون سياسة الانعزال (١٣٥ - ١٤٠) لتحاشي أسباب الشغب والعصيان (١٣٥)، ومنعوا سائر الأجانب من الدخول إلى الحواضر، فقد «كان المرسلون يحسبون الجماعات الحديثة العهد بالمسيحيّة أشبه بنبتات سريعة العطب ينبغي حمايتها وتنميتها في بيوت من زجاج»[٣٨].

ويفرد المؤلّف في هذا الفصل قسمًا خاصًا بالثقافة (١٤٠ - ١٥٠) لعلّه أروع ما في صفحات الكتاب كلّها. يبتدئ هذا القسم بجملة مفتاح هي التالية:

«كانت اللغتان الرسميّتان في الحواضر الإسبانيّة والكوارانيّة، وكانت الثانية، عمليًا، هي اللغة الوحيدة الشائعة».

ويقف المؤلّف بتأنٍ عند سياسة الكنيسة في مسألة اللغة، وإصرارها على أنّ اللغات الهنديّة هي الوسيلة الوحيدة المقبولة لنفاذ المسيحيّة إلى السكّان الأصليّين، وأنّ من الظلم إرغام الهنود على تعلّم الإسبانيّة. ويخبرنا المؤلّف أنّه في عام ١٥٧٥ ابتدأ إلقاء المواعظ باللغة الكوارانيّة وألّف اليسوعيّون معجمًا للكوارانيّة، وصدر كتاب في عام ١٥٨٤ بالكوارانيّة، تحت عنوان «التعليم المسيحيّ المختصر» (١٤٢ - ١٤٣). ورغم أنّ رواية المؤلّف عن تقدّم اللغة الكوارانيّة يشوبها شيء من الاضطراب (قارن الفقرة ٢٣٩ بالفقرة ٢٤١؛ وأنّه كان ينبغي أن تحيل الفقرة /٢٠٩/ إلى القسم الخاصّ بالثقافة بدءًا من الفقرة /٢٣٥) يبدو ثابتًا أنّ الأب رويث مونتويا أصبح المرجع الأوّل في الكوارانيّة حين نشر عامَي ١٦٣٩ و١٦٤٠ كتابَين عن تلك اللغة. ومن الآثار التي بقيت من عمل اليسوعيّين في حقل اللغة أنّ الكوارانيّة ما زالت حتّى الآن لغة البلاد الرسميّة إلى جانب الإسبانيّة (١٤٥).

ومع العناية بالكوارانيّة ظهر «مؤلّفون» بتلك اللغة يحدّثنا الكتاب عن أديب منهم هو الهنديّ نقولا يابوكاي (١٤٥) الذي نشر كتبًا في النصف الأوّل من القرن الثامن عشر وكانت الطباعة أدخلت إلى الحواضر في أواخر القرن السابع عشر.

في مكان سابق أشرت إلى أنّ المترجم أو الناقل (كما يدعو الأب حشيمه نفسه، أيّهما أصحّ يا ترى؟) يطلّ علينا بشخصه وبعلمه الخاصّ في عدد من المواضع مضيئًا النصّ في الهوامش إضاءات ذات فائدة. ولعلّ أهمّ إضاءة تلك التي يأتينا بها في الهامش /٥٦/ الممتدّ على الصفحتَين ١٤٦ - ١٤٧. في النصّ يقول المؤلّف إنّ اليسوعيّين «وفّروا بلا شكّ تربية أرفع مستوى، إلى حدّ معيّن، لأبناء الأشراف». يتدخّل الدكتور حشيمه في هامش فيقول ما نثبّته بكامله هنا نظرًا لأهمّيّته بالنسبة إلى بلادنا العربيّة أيضًا:

«لقد زلّ هنا قلم المؤلّف وألصق باليسوعيّين دون تروٍ تهمة لعلّه ساقها

متأثرًا ببعض الشمارت. فلا ذكر البتّة في وثائق الرهبانيّة اليسوعيّة لِمَا يستشفّ منه «الاستئثار» بتربية أبناء الأشراف. وهي لم تَسْعَ قطّ إلى ذلك لِمَا فيه من منافاة للروح المسيحيّة والرهبانيّة. وَهَبْ أنّها أرادت ذلك فأنّى لها السلطان لمنع سواها».

ثمّ لا بأس من أن أضع تعليقًا لي على تعليق المترجم: لعلّ الموضوع، بأهمّيّته، يحتاج إلى أكثر من هامش في أسطر. ولن يخطئ الدكتور حشيمه، واليسوعيّون، إن كرّست لدحض التهمة (الشائعة) دراسة مستقلّة أو كرّس للدحض كتاب برأسه.

(٦)

«الذورة والزوال» عنوان الفصل الرابع من الكتاب. في هذا الفصل تأريخ للصعوبات والتهم التي تعرَّض لها اليسوعيّون من خلال تجربتهم الكوارانيّة. ومنها أنّهم أنشأوا «مملكة» في البركواي مليكها دعي «نقولا الأوّل». ويعزو المؤلّف هذه التهم إلى أعداء اليسوعيّين وفي طليعتهم وزير برتغاليّ هو بومبال «عدو اليسوعيّين المعروف» (١٥٧). ويردّ أرماني على هذه التهم. ثمّ يورد أخبار المعارك التي دارت بين «الدولة» اليسوعيّة وبين أعدائها من المستعمرين الإسبان ومن المولدين، موضّحًا أنّ إسبانيا ظلّت تؤيّد أعمال اليسوعيّين حتّى مرحلة متأخّرة. فقد «أصدر الملك فيليبّس الخامس في ١٧٤٣/١/٢٨ ما عرف بالوثيقة العظمى وهي تثبت سائر الامتيازات التي أنعم بها ملوك أسبانيا السابقين على الرهبانيّة اليسوعيّة ومَن في عهدتهم من الكوراني (١٧٣). ورغم الصعوبات التي عانى منها اليسوعيّون، إلاّ أنّ المؤلّف يرجع أسباب انتهاء التجربة إلى مجرى السياسة الأوروبيّة ومعاهدة مدريد في ١٧٥٠/١/١٣. ويظهر أنّ اليسوعيّين ظلّوا على ولائهم للسلطة الإسبانيّة حتّى صدور قرار طردهم من إسبانيا في ١٧٦٧/٤/٢. ثمّ طبّق قرار الطرد في المستعمرات الإسبانيّة، حيث قام حاكم بونس آيرس باحتلال البركواي وطرد اليسوعيّين منها في آب ١٧٦٨. أمّا بلاد الكوراني فقد أضحت، في سنتي ١٨٠١ ـ ١٨٠٢، مقسّمة بين الأرجنتين والبركواي والبرازيل. ودامت محنة اليسوعيّين في علاقتهم بإسبانيا حتّى أيّار عام ١٨١٥ حين أعيدت الرهبانيّة اليسوعيّة إلى إسبانيا «وقد تمّ لها ذلك بكلّ مظاهر التجلّة» (١٨٢).

(٧)

عنوان خاتمة الكتاب ذو دلالة. إنّه «المحاولة المقدّسة». في الخاتمة يرسم المؤلّف صورة إجماليّة لمعنى التجربة. يكبّر النوايا ولا يتغاضى عن الفشل. ترد في الخاتمة جمل ذات وقع انتقاديّ أبلغها هذه: «عاش الكواراني في حالة طفولة تعدّت-المألوف، ممّا حال عندهم دون قيام رؤوس مفكّرة» (١٩٢). إلاّ أنّها تنتهي بجملة إيجابيّة انتقاها المؤلّف من أحد أعمال كالدرون، وهو على حدّ قول المؤلّف «أحد أشهر الاختصاصيّين في شؤون اللغة بأميركا الجنوبيّة». نصّ الجملة:

«يتعايش في البركواي، على مستوى من الأهمّيّة واحد، اللسانان الكواراني والإسبانيّ، سوى أنّ المواطن في البركواي يشعر بالاعتزاز لانتمائه الهنديّ المتمثّل باللسان الكواراني وهو يتكلّمه بكبير اعتزاز» (١٩٤).

وحاولت أن أعرف من مصادر البحث تاريخ هذا الكلام فلم يسعدني الحظّ. إلاّ أنّ أيّ كتاب مرجعيّ عن البركواي يذكر أنّ ٩٠٪ من السكّان يتكلّمون اللسان الكواراني، إلى جانب الإسبانيّة التي هي اللغة الرسميّة. ولا ريب أنّ اليسوعيّين كان لهم الفضل الأكبر في حفظ هذه اللغة الهنديّة.

(٨)

حين أفرغ من الكتاب الذي أراجع فمن الأرجح أن أضعه ضمن مجموعة الكتب عن فلسطين. صحيح أنّ الكتاب إنّما هو عن اليسوعيّين في البركواي بل قد يمكن القول إنّه الكتاب النهائيّ عن تجربة اليسوعيّين هناك - وهذه هي قيمته الأولى والمعلنة - إلاّ أنّ ما شدّني إليه، قراءةً ومراجعةً، أمر آخر مختلف كلّيًّة أدعوه: الظاهرة الاستيطانيّة. ألخّص الآن هذه الظاهرة بأنّها «جلوس شعب على شعب» بكلّ ما في هذا الجلوس من عنصريّة حتميّة. ماذا يفيدنا كتاب أرماني في علم الاستعمار الاستيطانيّ؟ يفيدنا أنّ الأوروبيّ إذ يحتكّ بالسكّان الأصليّين فلن يكون إلاّ متفوّقًا مهما صفت نواياه، يضع الآخر في «حالة طفولة تتعدّى المألوف». هل ثمّة حلّ أخلاقيّ؟ حلّ سياسيّ؟ هل كان يمكن لتاريخ الاستيطان أن يأخذ مجرى مختلفًا؟ هل يمكن لظاهرة الاستيطان أن

تغـدو أكثر «إنسـانيّة»؟ تلكم أسئلة أكتفي هنـا بطرحهـا آملاً أن تسـاعـدني الظروف، بمناسبة /٥٠٠/ سنة على اكتشاف أمريكا، على تجديد كتاب لي طبع قبل نيف وعقدين عن «الاستعمار الاستيطاني» (بالإنجليزيّة - بيروت والخرطوم - مركز الأبحاث الفلسطينيّة وجامعة الخرطوم، ٢٢٠ صفحة من القطع الكبير).